

المسيحية وإشكاليات اللاهوت الفلسفي: جدل العقل والإيمان.

Christianity and the Problems of Philosophical Theology: The Controversy of Reason and Faith.

سعدية بن دنيا

جامعة مستغانم - الجزائر

bendeniasaadia@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2020/10/25

تاريخ القبول: 2019/07/07

تاريخ الإرسال: 2018/03/20

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع اللاهوت المسيحي وبنيتيه الداخلية، من حيث المفاهيم والمبادئ التي يقوم عليها، وكيف استثمر هذا اللاهوت في الفلسفة اليونانية لإضفاء الطابع الفلسفي على القضايا اللاهوتية، من خلال جعل الكتابات المقدسة (الأنجيل) داخل دائرة التفكير الفلسفي، مما ولد قضايا تيولوجية ذات طابع جدلي. وبهذا نطرح الإشكالي التالي: ما العلاقة بين المسيحية والفلسفة اليونانية؟

الكلمات المفتاحية:

التيولوجيا المسيحية، الفلسفة اليونانية، الرمز، الألقاب، التثليث.

ABSTRACT:

This study deals with the subject of Christian theology and its inner structure, its concepts and its founding principles, and how this theology has invested in Greek philosophy to give the philosophical character to the questions of beliefs, starting to make the sacred writings (the Gospels) in the circle of philosophical thought, which has generated theological questions of a controversial aspect. As a result, the following question is asked: What is the relationship between Greek philosophy and Christianity?

Keywords:

Christian theology, Greek philosophy, symbol, hypostases, trinity.

مقدمة:

وُلدت المسيحية في ظل الصراع التاريخي مع اليهودية، وهو الصراع الذي رسم مرحلة تشكلها الأولى، وفي هذا دلالة على أن هذه الديانة ستحتاج إلى آليات للدفاع وخوض الصراع من أجل البقاء، وسترتسم هذه الآليات في فضاء ثقافي مركب من عمق المنظومة الأخلاقية

والروحية والاجتماعية للمسيحية كدين ومن الروافد التي فرضت نفسها على تأخرها كالفكر اليوناني وعقائد وتقاليد الحضارات الشرقية القديمة وهو التركيب الذي طبع الفكر الإسلامي بدرجة أكبر. إن البحث في الديانة المسيحية يقتضي التفريق بين نشأة المسيحية باعتبارها دينا يشتمل على منظومة روحية وقيمية بناء على الاستلهام الروحي للمبادئ المؤسسة في الكتابات المقدسة (الأنجيل والسجلات اللاهوتية المرتبطة بها)، وبين نشأتها (المسيحية) باعتبارها منظومة معرفية مبنية على التأمل في البنيات النظرية للمبادئ العقيدية (التثليث) والرهانات الدفاعية ضد الملل الوافدة (كالمناوية وغيرها من الملل التي تخرج عن الخط التوحيدي للأديان السماوية)، أي أن مهمة الدفاع المعرفي في الثقافة المسيحية تركز حول التوحيد بالصيغة الثالوثية ومحاولة البرهنة على الجمع بينها دون طرح إشكالية التناقض. وهذا ما أفضى إلى التطعيم بالفلسفة الوافدة (اليونانية)، وأظهر الحاجة إلى البحث عن مصادر جديدة لتمثيل المبادئ اللاهوتية المسيحية في قوالب فلسفية عقلية، فما هي العلاقة بين الإنجيل والفلسفة القديمة؟ وتحديدا بين التفكير الذاتي الموروث عن الفلسفة العقلانية اليونانية والتفكير الإلهي الموحى؟

1_ طبيعة الديانة المسيحية وخصوصياتها: ظروف النشأة وrehانات التأسيس:

مرّت المسيحية في نشأتها بمرحلة تشكل أولى قبل أن ترسم وتخرج في شكلها النهائي المكتمل، شأنها في ذلك شأن الكثير من الديانات التي لم تنشأ بدورها إلا بعد مراحل متوالية من الاختزال والاستبعاد. وفي هذا الصدد يذهب توينبي إلى "أنها خلاصة لجملة من الإقصاءات والاستحواذات المتفاعلة التي جرت تجاه مجموعة من العقائد التي شاعت منذ القرن السادس قبل الميلاد، يمكن أن يتصل بعضها بـ "أشعياء الثاني" القائل بإله واحد والذي تبلورت على يديه اليهودية ثم المسيحية اللاحقة، وزرادت الذي استبعد بعض آلهة المجمع الإيراني مركزا القوة في الروح الأكبر وفيثاغورس الذي حاول إصلاح أسلوب الحياة الهيلينية بتأسيس نحلة دينية تستمد جوهرها من الأورفية، وبودا وكونفوشيوس بمنظومة التعاليم الأخلاقية التي شاعت في الشرق"¹، وهذا يعني أن المسيحية إنما تبلورت ضمن مخاض تاريخي خاص جرى فيه استبعاد الكثير من القضايا الدينية التي تخلص إليها الديانات المنافسة، كما حصل في الوقت نفسه استبقاء العناصر التي تتواءم مع جوهرها وهي بذلك تشكل امتدادا للكثير من العقائد التي شاعت قبلها.

غير أنها تعتبر امتدادا مباشرا لليهودية على وجه التحديد "ويثبت ذلك بوضوح وجود جماعات يهودية مسيحية في الأصل... إن إله المسيحيين، وفق إقرارهم بالذات، هو الإله الذي انكشف لإبراهيم وإسحق ويعقوب والذي لم يتوان شعبه المختار على الاحتفال بحضوره رحمة على جليل نعمه"²، ففي المسيحية كما الحال في اليهودية العديد من السياقات المشتركة والأفكار المتشابهة الأمر الذي يؤكد أن المسيحية استمدت من اليهودية الكثير من المقومات والتعاليم.

إن الشريعة التي يحملها يسوع إنما هي تطوير وتكملة للشريعة التي جاء بها موسى متممة روحها من دون أن يحيد عن أصول العقيدة الموسوية وهذا ما يبرزه يسوع في قوله: "لا تظنوا أنني أتيت لأحل لكن لأتمم الحق أقوله لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل"³ مما يعني أن تعاليم المسيحية لا تتوجه في صميمها سوى إلى إحياء اليهودية وبعثها من جديد. بيد أنه وبالرغم من العلاقات الوثيقة التي تصل كلا الديانتين حدث صراع كبير ومواجهة عنيفة بينهما كان يراد منهما على الأرجح التخفيف من التأكيد الذي رافق كثيرا المسيحية في نشأتها وكاد يقذف بها بأجمعها خارج حدود التأسيس الذاتي ويطمس عناصرها الأصيلة، وهو التأكيد الذي يصفها بأنها استحدثت من صلب اليهودية وينفي عنها أي انبعاث خاص.

فلقد تلقف اليهود النصوص المسيحية بكثير من الحذر وسرعان ما ذهب البعض إلى القول بأن ثمة فوارق عميقة بين نظريات المسيحية وما جاءت به شريعة موسى، ومن ثمة "امتنعوا عن اللحاق بالمسيحيين في اتجاه يؤدي، حسب مفهومهم، إلى هدم شريعتهم"⁴ وذلك على الرغم من أن المسيح يعلن صراحة أنه أرسل لأبناء إسرائيل. وعليه عمدت المسيحية في نشأتها إلى التخلص من كل ما من شأنه أن يفضي إلى وجود تداخلات بينها وبين اليهودية مما أفرز "الانفصال الفعلي بين الكنيسة والمعبد، وأصبح أتباع عيسى يتحدثون عن اليهود بعبارات لا شك في أنها كانت غريبة كل الغرابة عن تعاليم أستاذهم، ولن يلبث هؤلاء الأتباع حتى يرفضوا الاعتراف لليهود بأي إدراك للحق وبأي فهم للشريعة الموسوية نفسها"⁵ ونظرائهم اليهود، ومن ثمة بروز المسيحية كديانة منافسة عنيدة لليهودية.

2- بنية العقيدة المسيحية:

انبرت المسيحية إلى تعزيز ركائزها الخاصة بجملة من المقومات والثوابت الذاتية، حيث أنها "وفي مقتبل القرن الثاني تظهر لنا في ثوب دين مستقل يدرك أصحابه تماما انفصاله عن اليهودية وإن كانت عناصره لم تزل بعيدة عن الانسجام، كما لم تخرج طقوسه وتنظيماته عن الطور البدائي"⁶ وكل هذه المساعي الحثيثة كان يراد منها بالدرجة الأولى إلغاء الافتراض الذي يلخص المسيحية في أنها مجرد تطور خاص لليهودية وكذا تعميق الاختلافات بينهما من جهة وتأكيد خصائصها الذاتية من جهة أخرى.

والواقع أن المسيحية إنما تشكلت وتطورت فضلا عن عناصرها الأصلية ومكوناتها الجوهرية بفعل الأفكار التي اقتبستها من العقائد الأخرى وأدمجتها في سياقاتها الخاصة، فهي "تقوم من ناحية على الإقصاء والاستبعاد والطمس إذا كان ذلك ممكنا، وتقوم من ناحية أخرى على الامتصاص والاستحواذ والتمثل بما يغذي أفكارها"⁷ ذلك أنها نشأت في مناخ ديني وثقافي مليء بالأساطير والأفكار الوثنية، يضاف إليهما بالطبع تأثيرها الواضح بالتعاليم اليهودية، فلقد صاحبته في نشأتها سلسلة التراكمات التي لحقتها نتيجة إقبالها وتفاعلها مع العديد من العقائد الأخرى، حيث أنها لم تحافظ على صفاتها ونقائنها، واصطنعت صورة جديدة جمعت بشيء من التلفيق بين عناصرها الأساسية وبين الأفكار المتفرقة والتصورات المتناثرة التي اقتبستها من العقائد الأخرى.

وهو الأمر الذي أشار إليه توينبي في قوله: "إن عملية الدمج التي قامت بها المسيحية وإعادة التركيب للأفكار المتناثرة لم تكن فاعلة دائما"⁸، ولعل من الآثار السلبية التي ترتبت أيضا عن هذه الشوائب التي تسربت إلى جوهر العقيدة المسيحية ظهور التعدد بين ثنایا الأنجيل الممثلة لهذه العقيدة، فالعناصر التي تغلغت إلى تضاعف هذا الدين الجديد لم "تسفر عن إيجاد وحدة واحدة في روح العقيدة، وظهر التعدد ممثلا بالأنجيل التي تتضمن تفسيرات لبعض الأحداث والظواهر"⁹ وأثرت خلا في روح عقيدته مما أثار جدلا حادا وواسعا في أوساط علماء الدين واللاهوت، وكان من نتيجة ذلك ظهور الفكر المسيحي هجينا ضعيفا.

إن أبرز ما قررته المسيحية وهي تبحث عما يرسى دعائمها الأصلية ويقوى مكوناتها الخاصة هو تأسيس الكنيسة "باعتبارها سلطة منظمة لشؤون الأفراد المؤمنين بتلك الديانة ومسؤولة عن تركيب اللاهوت المتعلق بها"¹⁰. حيث أن الرهان الأكبر الذي كان يواجهها - بوصفها إطارا تنظيميا للمسيحية يدافع عن شرعيتها وقديسيتها - هو مراعاة شؤون المسيحيين الدينية والدنيوية والحرص على تنظيمها.

ذلك أن المسيحية نشأت في ظروف يسودها الاضطراب والقلقلة على المستويين العقائدي والسياسي على حد سواء، فأصبح من الضروري اعتماد الكنيسة كسلطة دينية حيث أن "نشأة الكنيسة في ظرف كانت فيه الإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية مهمة باستحداث وسائل تنظيم معينة، جعل الكنيسة تتشكل بوصفها "مؤسسة دينية" تحت تأثير الإمبراطورية فالتطابق بين هرمي السلطة الإمبراطورية والكنيسة معروف، وسرعان ما عبأت الكنيسة اللاهوت المشكل حديثا بكثير من الأفكار الشائعة"¹¹ التي تقتضيها ظروف خارجية، كالصراعات بين السلطة الكنسية والسلطات السياسية، بحيث تعتبر الكنيسة نظام السلطة الكنسية الذي ينظم علاقتها بالسلطات الأخرى لاسيما السياسية منها، بينما يتصل اللاهوت بالمضمون الديني والأخلاقي.

ولعل أهم ما ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق هو أن تأسيس الكنيسة كان يراد منه على وجه التحديد بلورة هياكل فاعلة، وأطر منظمة للمسيحية كعقيدة ودين، وكذا تنظيم وظائفها ونظمها الدنيوية المتصلة بالجوانب الحياتية للمسيحيين أنفسهم. وهي المهمة التي انبرى آباء الكنيسة¹² إلى تجسيدها من خلال الاستمرار في نشر الدعوة الجديدة وتأسيس الأخلاق الدينية والدفاع عن المسيحية ضد مهاجميها.

لكن وبالرغم من الدور الفاعل الذي قام به آباء الكنيسة استمرت السجلات اللاهوتية حول مكونات الديانة المسيحية وحول سلطات الكنيسة فيها والدور المنوط بها والتي سرعان ما أفضت إلى جملة من الانتقادات اللاذعة التي باتت تهدد المسيحية وتورق المؤمنين بها وفي مقدمتها أنها تتناقض مع مبادئ المنطق والعقل. وعليه تشكلت حركة فكرية جديدة حملت لواء الدفاع عن العقيدة المسيحية والرد على مهاجميها ممثلة في الفلسفة المدرسية¹³، والتي حاولت

جاهدة الدفاع عن العقيدة التوحيدية لهذه الديانة والتأسيس لمبادئها ومقوماتها الرئيسية، ومن ثم دفعها إلى الانتشار والاستمرار.

تستند المسيحية كعقيدة ودين في أصولها ومصادرها الرئيسة على جملة من المصادر المقدسة، وتتراوح هذه النصوص بين مجموعة من الأناجيل والكتب والرسائل التي كتبها رسل وقديسون محمولون بالإهام من الروح القدس، وهي التي تكون النص الشرعي المقدس المسيحي. غير أن الكتاب المقدس للمسيحيين يتكون في عمومه من قسمين: القسم الأول أي العهد القديم ويتكون من تورااة اليهود وما ينسبونه لأنبيائهم حتى زكريا عليه السلام، وهو مشترك بين اليهود والمسيحيين مع بعض الفوارق في تقبل النصوص والاعتراف بها أما القسم الثاني وهو العهد الجديد، فهو للمسيحيين فقط، إذ أنهم وعلى اختلاف انتماءاتهم يعترفون بصحة جميع الكتب والرسائل التي يتألف منها¹⁴، وفي مقدمتها الأناجيل التي ينسبها المسيحيون لتلاميذ المسيح عليه السلام بوصفهم قديسين ورسل.

أ- اللاهوت الديني:

كلمة إنجيل هي يونانية الأصل وتعني الخبر الجيد والبشارة السعيدة، وهكذا فليس الإنجيل في المنزل الأولى كتابا¹⁵ أو خطابا بقدر ما هو حادث أو بالأحرى تعبير عن حادث¹⁶، وهي "تشير إلى بشارة يسوع المسيح بخلاص البشر من الخطيئة والموت.. فكل من الأناجيل هو في الأساس إعلان إيمان بالمسيح القائم من الأموات وهو يهدف إلى إظهار ما تعنيه حياة يسوع للمؤمنين"¹⁷ إذ يبدي تفاصيل دقيقة عن المسيح وما فعله لتخليص البشر وتثبيتهم على طريق النور والحق. وإذا كانت الأناجيل تتعدد وتتناوب بحسب الروايات والخطب التي جمعها المبشرون، والتي أنتجت أناجيل كثيرة ومختلفة، زادت باتساع انتشار المسيحية وبابتعاد المبشرين تدريجيا عن المسيح وعن الذين شهدوا حياته وأقواله، فإن الكنيسة اليوم لاعتبارات دينية وإيديولوجية، تقرر بأربعة أناجيل فقط* هي إنجيل متى، مرقس، لوقا ويوحنا¹⁸.

وإن كان كل قديس من هؤلاء يهتم بجمع ما ورد عن المسيح من خطب وأفعال، مع بعض القراءات الخاصة والشخصية التي تركز على بعض الأحداث والتفاصيل دون غيرها كنسبة أقوال وأفعال بعينها إلى المسيح والسكوت عن أخرى، فإن القديسين الأربعة يتفقون على "إعلان

مربع لدعوة واحدة للسير على الطريق الجديد ليسوع المسيح، ونداء موحد إلى الإيمان وإلى ملكوت الله¹⁹. إلى جانب الأناجيل يعد كتاب "أعمال الرسل" أحد أهم المصادر التي تشرح تعاليم المسيحية، "وهو يتحدث عن إنشاء الكنيسة وانتشارها في حوض البحر المتوسط حتى رومة"²⁰، وكتاب أعمال الرسل في الأصل من وضع القديس لوقا وضعه حوالي السنة 85²¹، وحاول من خلاله تنمة وتفصيل الإنجيل الذي وضعه سابقا، وهو يعنى أساسا بسرد تفاصيل حياة المسيحيين الأوائل، كما يلقي الضوء على المشاكل والعوائق التي تكبدتها الكنيسة في بدايتها، نتيجة صراع التأويلات والمذاهب وتشكل الرؤى السياسية المرتبطة بها من خلال تضارب النصوص واختلاف الاتجاهات المعرفية التي تولدت عن تعدد الأفهام وارتباطها بمسألة قدسية النص الإنجيلي نفسه. يلي كتاب أعمال الرسل من حيث الأهمية وترتيب الكتب أو بالأحرى الرسائل التي خلفها القديس بولس، "وهي تحتوي توصيات خاصة بالإيمان المسيحي، وتحذيرا من الوقوع في الخطأ والضلال، وأمثلة على عظمة عمل المحبة في العالم"²²، وقد كان لهذه الرسائل بالغ الأهمية في تطور المسيحية الأولى، أي المسيحية حين نشوؤها.

ب- الأسرار الإلهية:

طرحت الأناجيل والكتب المقدسة بوصفها نصوصا مؤسسة للمسيحية العديد من القضايا التي تشكل في جوهرها الأصول الأساسية للفكر المسيحي، ومن أهم هذه المسائل الأسرار الإلهية^{**} (سر التجسد، سر الفداء، وسر الثالوث المقدس)، التي تعد -على قدر أهميتها- إشكاليات معقدة وعويصة قدمت أفكارا وأطروحات جديدة مما قدمته اليهودية في تصوراتها السابقة، وسنحاول فيما يلي أن نتعرض بشيء من الشرح والتفصيل لهذه الأسرار وكيف حاولت المسيحية أن تجيب على الملبسات التي دارت حولها.

ب-1 - سر التجسد: الكلمة صارت بشرا.

يؤمن المسيحيون بأن "رسالة الله الأزلية وغير المخلوقة" صارت بشرا وسكنت بيننا" في شخص الإنسان يسوع ... أو كلمة الله أوحيت في يسوع الإنسان، وعليه فإن المسيح لا ينقل كتابا "موحي"، بل تجسد وحي الله -إنه وحي الله²³، وبمعنى آخر الإله تجسد في شخص يسوع المسيح:

لقد أصبح الإله إنسانا، والإنسان إلها، وهو ما طرح تساؤلات واستفهامات عديدة أمام المسيحية ولعل أهمها: هل المسيح هو الله؟ أم يمكن القول إنه ابن الله؟

وهكذا سارعت المسيحية إلى تأكيد وحدانية الله المفارقة والتي تعد عقيدة أساسية من عقائدها ومن التفسير التي قدمتها لشرح سر التجسد: "أن الإنسان لم يكن بإمكانه أن يرتفع إلى الله، فقد شاء الله في محبته أن ينحدر بنفسه إلى الإنسان ليعيد الشراكة بين الإنسان وبينه وبالتجسيد أخذ الله على نفسه طبيعتنا البشرية الساقطة وضمها إلى لاهوته لتسري فيها الحياة الإلهية فتجددها، وبالتجسد اتحد الله ذاته بالإنسان لتسري في الإنسان حياة الله"²⁴، ولكن هذا التفسير عمق المشكلة أكثر، إذ يؤول إلى نتيجة حتمية وصريحة مفادها أن الإنسان تأله بالتجسد !! ولا يعقل أن تجتمع الألوهية على ما تقتضيه من تنزيه وتعال مع التجسد البشري الملموس.

تحاول المسيحية من جديد إيجاد حل لسر التجسد من خلال الجزم بأن ما ندعوه تجسدا "لا يعني أننا أصبحنا آلهة بالطبيعة، فإننا لازلنا مخلوقات، لكن التأله يعني أن حياة الله قد أعطيت لنا فصرنا مشاركين له في محبته في مجده، في قوته، في فرحه، في حكمته، في قداسته، في خلوده، لم نبلغ جوهر الله، لأن الله متعال دائما ولا يمكن الوصول إليه، ولكن القوى الإلهية أعطيت وأصبحت في متناولنا"²⁵، بمعنى أن التجسد فضل محبة من الله على عباده، إذ لم يحاسبهم على جفاء ابتعادهم عنه ومن عليهم بالمشاركة له في محبته ونعمة، بيد أن هذه المشاركة لا تعني أبدا التماهي مع جوهره لأنه مقدس مفارق متعال على الدوام.

وإن كان الإيمان المسيحي يقر بأن المسيح "ولد بقوة من الله من امرأة قدسية بتول، هي مريم، وهذا لا يعني مطلقا أن الله له ولد على نحو ما للبشر من أولاد، أو على نحو ما اعتقد به قدماء اليونان والرومان وعرب الجاهلية في شأن ألتهتهم"²⁶ بل ينفي أي إمكانية للإنجاب الجسدي، فإن التجسد ما ينفك يطرح أسئلة أخرى كثيرة ومتشعبة، أسئلة هي من شاكلة: هل يسوع المسيح مساو للإله في الذات والجوهر؟ أهو إنسان خارق موسوم بطابع التفوق والعلواء؟ أم هو بشر ابن بشر؟ والواضح كذلك أن الفكر الأسطوري طرح أيضا في ثنايا المسيحية "حينما صاغ اللاهوت تصورا لموضوع التجسيد والقيامة والولادة..."²⁷ ناهيك عن امتدادات المؤثرات الغنوصية واليهودية والوثنية التي سربت إلى الكتب والنصوص الدينية المقدسة العديد من التصورات الدخيلة.

وعليه بادر اللاهوت المسيحي إلى البحث عن سبل جديدة للدفاع عن العقيدة المسيحية والتأكيد بأن المسافة بين الوجدانية الإلهية المتعالية والطبيعة الإلهية المتجسدة في شخص المسيح كبيرة جدا، ووجد الحل في التعبير المجازي الذي يراد به بالدرجة الأولى تجنب الفهم الحرفي للأناجيل، ذلك أن المسيحيين "عندما يدعون الله "أبا" و"أبا يسوع" يدركون أنهم يتكلمون مجازا، منطلقين من خبرة البشر لا يخطر في بال أحد أن هذا النوع من المجاز يشير إلى أي إنجاب جسدي، بل الهدف منه هو الدلالة على الإتحاد والدلالة والحياة، والتعبير عن العلاقات بين البشر والله"²⁸، فلا المسيح هو إله وبشر في الوقت ذاته، ولا هو ابن الله بالمعنى الحقيقي للكلمة والتجسد إنما يقال على سبيل المجاز ليس أكثر.

لقد ظهر إذن أن المسيحية واجهت رهانات صعبة في التأسيس لمعتقداتها وتثبيتها على الأقل في نفوس المؤمنين بها، وحتى تهيب الأذهان أكثر لقبول فكرة التجسد طرحت فكرة جديدة هي فكرة الخلاص.

ب-2- سر الخلاص والفداء:

إن الخلاص في حقيقة الأمر تكلمة لسر التجسد وامتداد له، ذلك أن التجسد - فضلا عن أنه يحيل إلى مبادرة المحبة الإلهية على نحو ما رأينا سابقا - هو أيضا "رمز لخلاص المؤمنين من عبودية الشيطان بتجسيد المسيح وموته ودخولهم إلى ملكوت الله"²⁹. وهكذا يعتقد المسيحيون "أن الله اختار بملء حريته أن يحقق خلاص البشر بواسطة يسوع، وأنه تعالى لم يكتف بأن جسد كلمته في يسوع، بل أراد أن تكون لأفعال يسوع قدرة خلاصية خاصة "فمات المسيح من أجلنا إذ كنا خاطئين"³⁰، ومن ثمة كان "سر التجسد سر فداء والفداء كان إصلاحا ومصالحة"³¹، فلقد جسد الله رسالته في شخص يسوع الإنسان مما أنتج من موت يسوع على الصليب، فيما يعتقد المسيحيون دائما، خلاص البشرية وهنا تبرز العلاقة الوثيقة بين مفاهيم التجسد، الفداء والخلاص ويظهر أن كل مفهوم من هذه المفاهيم يحيل إلى الآخر.

مما يعني أن المسيحية لجأت أيضا -إلى جانب التعبير المجازي- إلى ترميز تصورات ومفاهيم بعينها، كيما تحمل معان عديدة وتأويلات مختلفة، وبالتالي ليس كل ما يعبر عنه في الأناجيل وما عداها من الكتب والشروحات حقيقة صريحة، وإنما ينبغي حمله على أوجه مختلفة،

ذلك أنه بمنزلة الرمز من الحقيقة. ومهما يكن من أمر فإن العلاقة بين المسيح والإله لا ينبغي أن تفهم إلا "على سبيل الاستبطان الرمزي والكشف الداخلي استنادا إلى موحيات النص الديني"³²، فالفهم المباشر لما تقدمه نصوص الإنجيل من معتقدات وأفكار طرح العديد من الأزمات على مستوى فهم النص الديني وعجل بضرورة تأويله. وعليه نستنتج أن التأسيس لجملة المبادئ الأساسية في المسيحية، لم يكن بالأمر الهين، وإنما احتاج جهودا معرفية ولاهوتية كبيرة، استدعت تجنب الفهم الحرفي للأنجيل تارة واقتضت المعالجة المنطقية للنصوص الدينية بعامة تارة أخرى.

ب-3- سر الثالوث المقدس:

سبق وأن رأينا أن الإله المتجسد هو يسوع المسيح الذي جاء مخلصا للبشرية بتجسده وموته مصلوبا، إذ كان التجسد مبادرة محبة مجانية من الله نحو عباده المتقاعسين، وكان الخلاص تكفيرا لا متناهايا عن الخطيئة. إلى جانب ذلك يؤمن المسيحيون أيضا بالتثليث، أي بوحدة ثلاثة أوجه في الله، بمعنى أن "عيسى هو ابن الله، ينتسب إليه نسبة مباشرة وإن كانت من نوع خاص، ثم أنه أيضا هو الله، وهو منظم العالم بإرادة الأب وبمعونة الروح القدس".³³

وقوام هذا الطرح "فكرة المحبة" ومؤداها أن "الله محبة وتلك المحبة ليست فكرة محضة إنها حقيقة قائمة في شخص حي، ولأنها تقوم في شخص، ندعو هذا الشخص "الأفنوم" أي الوجه الذي تقوم فيه المحبة".³⁴

وهكذا كانت المحبة تقوم في الله على ثلاثة أوجه:

- وجه الأب وهو الحب الذي يعطي.
- وجه الابن وهو الحب الذي يتلقى عطاء الأب.
- وجه الروح القدس وهو الوساطة بين الوجهين السابقين، إذ يصل الأب بالابن والابن بالله.³⁵

هذا ولقد أدى هذا الاعتقاد إلى ظهور حوارات وسجلات عديدة بين أتباع المسيحية ومريديها وولد عدة إشكاليات من جملتها: هل ثمة جزأين متميزين في المسيح -باعتباره أفنوما - أحدهما إلهي والآخر إنساني؟**

وهل تتماهى الطبيعة الإنسانية مع الطبيعة الإلهية وتتضمنان بلا مغايرة أو انقسام؟

ولتنفيذ هذه الرؤى انبرت المسيحية إلى التأكيد أن وحدانية الله عقيدة جوهرية في المسيحية ولا يكتمل الإيمان إلا بها³⁶، ذلك أن الإله واحد وذو طبيعة إلهية واحدة، بيد أن هناك علاقة حب أزلية وحركة عطاء دائمة بين أوجهه الثلاثة: الأب، الابن والروح القدس، بمعنى أن ثمة محبة واحدة في ثلاثة أوجه، وهذا هو سر الثالوث المقدس "سر حياة الله الباطنة" الذي لا تستطيع العقول البسيطة إدراك كنهه أو تفسيره بفهمها البسيط المباشر.³⁷

وهذا يعني في النهاية القول إن الأب والابن والروح القدس إله واحد لا يشوبه تمايز أو انفصام، وإنما نميز فيه ثلاثة أقانيم أي صفات ذاتية غير منفصلة عن بعضها البعض، على النحو الذي نميز فيه بين الإنسان وعقله وروحه دون أن نفصل بين الثلاثة³⁸. وإن كانت البراهين التي ساقها المسيحيون للتدليل على الوحدة الإلهية ونفي التعدد عنها، على قدر كبير من القوة والأهمية، فإن المشاكل توالى وتلاحقت، وضعفت على اللاهوت المسيحي آليات البرهان والإقناع، بحيث نشأت مناقشات لا تعد ولا تحصى كان على أصحابها أن يختاروا بين حلين إما التوحيد أو التثليث إذ "لم يكن الإيمان من حيث المبدأ يقبل أي جدل في عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد".³⁹

تداعت هذه السجلات إلى الكنيسة مما سبب لها مشاكل هائلة لم تخرج منها إلا بعد أن اعتمد مريدوها الجدل المنطقي والبرهان المعقول "وكانت أساليب الجدل المستخدمة في العصر الذي نتحدث عنه هي أساليب السفسطائيين وأهل المنطق من الإغريق، كما أن المفاهيم التي تراكمت شيئاً فشيئاً على عناصر الإيمان الأولى فحولتها إلى عقائد، كانت نابعة من الميتافيزيقا الهيلينية إذ تستخدم مصطلحاتها في التعبير عن قضاياها"⁴⁰ المذاهب الفكرية التي كانت شائعة في بلاد الجليل حيث ولد المسيح عديدة ومتنوعة وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية والرواقية، فضلاً عن المؤثرات الشرقية كالغنوصية⁴¹ ولم تهدأ أوزار هذا التصعيد إلا في القرن الخامس أين رفضت غالبية المسيحيين "الاختيار بين الأمرين، وأرادت أن تبقى في نفس الوقت على وحدة الله التي لا تتجزأ وعلى وجود شخصيات ثلاثة متميزة فيه"⁴²، وهكذا يتأكد لنا مجدداً حاجة الممارسة اللاهوتية إلى التفلسف والجدل.

فإلى أي مدى تفاعلت مبادئ المسيحية كديانة توحيدية مع الفلسفة؟ وإلى حد وظفت التفكير العقلي والتصور المنطقي؟

3- لقاء المسيحية بالفلسفة اليونانية:

نشأت المسيحية في فضاء ثقافي وديني متشعب بعديد المأثورات الدينية والتصورات الفكرية التي طرحتها إما الديانات والعقائد المنافسة أو المذاهب الفكرية المختلفة، إذ كان المناخ الفكري لذلك العصر يعج بالأساطير والأفكار الوثنية، فضلا عن المؤثرات الغنوصية واليهودية. ومن بين المذاهب الفكرية الكبرى التي حكمت روح ذلك العصر ووجهت دفته الفلسفة اليونانية التي ما كادت المسيحية تظهر حتى اصطدمت بها وعلقت في أسرها، ذلك انه كان في ذلك المجتمع مذاهب فلسفية عديدة ومتنوعة وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية فضلا عن الأفلاطونية والأرسطوطالية⁴³. وقد كان لهذه المذاهب على اختلافها حظوة كبيرة لدى المسيحيين مع بعض التميز والصدارة للأفلاطونية التي كانت "المذهب المفضل لهم عرفوها بوقوفهم على بعض محاورات أفلاطون وعن طريق مختلف الكتاب، وخاصة فيلون الإسكندري".

كذلك كان للغة اليونانية عظيم الأثر في تكوين البنى الثقافية والفكرية للمسيحية فالإنجيل -كما سبق وان ذكرنا - كلمة يونانية، كما أن الأناجيل الموجودة الآن قد كتبت جميعها باليونانية العامة *Koine*، ولوحظ في ترجمتها أنها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجنس وترادف المعاني والمفردات⁴⁴، وبالـيونانية أيضا "كتب بولس رسالته إلى الرومانيين ثم كتب بها في روما رسائل عدة إلى الكنائس الشرقية، وبها كتب مرقس إنجيله كما كانت اليونانية لغة المسيحيين في الغرب وفي شمال إفريقيا ... فكانوا يعرفون اليونانية، فاستخدمتها الكنائس ومنها كنيسة روما"⁴⁵، غير أن المسيحية ليست أول من استخدم هذه اللغة في نصوصها المقدسة، فقد كانت اليهودية قد سبقتها من قبل في الالتقاء بالفكر اليوناني، إذ ترجم الكتاب المقدس إلى اليونانية وبخاصة ترجمة السبعينية، كما أن الكلمات اليهودية المكتوبة أو المحكية، قد نقلت أفكارا يونانية⁴⁶.

ولا جدال في أن الفلسفة اليونانية قد فرضت نفسها ووجدت طريقا إلى المسيحية، حيث أننا "لنجد المؤثرات الدينية الهيلينية تتفاعل فيها - على أساس من المبادئ اليهودية الواضحة كل

الوضوح - مع المفاهيم الفلسفية اليونانية التي نزلت إلى مستوى العامة بطرق غير مباشرة⁴⁷، فقد كان في ذلك المجتمع فلاسفة محترفون أبدوا استعدادا كبيرا للبحث في مسائل الإيمان ولأن يصبحوا من الباحثين في علوم اللاهوت، فكانوا يمشون - كل بحسب مذهبه - إلى نشر التعاليم الخفية، فيلتقي بهم المسيحيون ويناقشونهم⁴⁸ لكن ما أصل الحاجة إلى التفلسف؟

4- الفلسفة اليونانية والإشكاليات اللاهوتية: جدل الرمز والحقيقة.

انبرت المسيحية منذ بدايتها الأولى إلى حشد كياناتها الدينية الأصلية ومقوماتها الروحية الذاتية لإرساء منظومة عقائدية متماسكة يحذوها في ذلك هدف أساسي هو أن ينتظم الإيمان المسيحي وتنجلي معالمه، سيما أنها وجدت في وسط عرفناه مشربا بعديد المذاهب الفكرية والنظريات الدينية. سرعان ما أعلنت المسيحية "أنها تتطوي على الحقيقة كلها"⁴⁹، إذ عمدت إلى تكوين صورة خاصة بها بما يوافق المحور الأساسي فيها، وهو شخصية السيد المسيح⁵⁰، وهكذا كانت مسائل الاعتقاد المسيحي وعلى رأسها "مسألة الألوهة" محاور جوهرية لا يجوز الخوض فيها أو إبداء الرأي حولها.

والواقع أن الأصول المكونة للإيمان المسيحي كثيرة ومتداخلة لذلك سنكتفي بذكر المسائل الإيمانية الأساسية الثلاث التالية:

1- تأكيد الوجدانية الإلهية، إذ لم يكن الإيمان من حيث المبدأ، يقبل أي جدل في عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد.

2- عدم قبول الإضافات الإيمانية إلا بعد دراستها والنظر فيها، كما كانت النهاية المنطقية لكل الإضافات الخاصة بشخصية ودور عيسى المسيح، هي تقريبه من الله إلى درجة الوحدة.

3- كان هناك توجه دائم يسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الأب والابن والروح في شخصيات ثلاث تتحد معالمها.⁵¹

بيد أن الإله الواحد للمسيحيين قد تجسد وتمظهر في شخص يسوع، وقد أثارت هذه التصورات الخاصة بذاته - كما سبق وأن أشرنا - جدلا واسعا في أوساط آباء الكنيسة وأتباعهم وهذا يعني في النهاية القول بأن الإيمان المسيحي كان ينشد في أعماقه الوحدة لكن بمنطلقات إيمانية يشوبها الكثير من التعارض والتناقض.

كذلك ساهمت هذه المعتقدات في تعرض المسيحية والمسيحيين على حد سواء، إلى هجمات واسعة من قبل اليهود الوثنيين، ذلك أن المسيحية بعثت في بيئة يهودية ووثنية تخالفها في المعتقدات والمقاصد، وما لبثت أن اصطدمت بها، إذ لم يتقبل اليهود التصورات الرئيسية الخاصة بالمسيحية، سيما ما تعلق منها بالتثليث، وسرعان ما نسجوا حولها تفاسير خاطئة تصور الاعتقاد المسيحي معاديا للتوحيد الإلهي ووفقا للاعتبارات ذاتها، شن الوثنيون حملات شرسة كانت تعصف بالمسيحيين من حين إلى آخر، وما كان عليهم سوى أن يدافعوا عن العقيدة وأسسها بالحوار والمجادلة⁵².

كان على المدافعين المسيحيين أن يتصدوا لثلاث معضلات رئيسية وهي:

أولاً: الرد على التهجمات والحجج المسوقة على الإيمان المسيحي، بالبرهان على أنها ليست مبررة أو تنقصها الحجج المقنعة.

ثانياً: وضع حد للتفاسير الخاطئة المفسرة للمسيحية بالتكلم عن المسيحية كما هي عليه.

ثالثاً: تأسيس وتعليل واضحين للاعتقاد المسيحي بإظهار النقص في عقيدة الخصوم.⁵³

والغرض الأساسي من ذلك إظهار المسيحية بصورة إيمانية وعقيدية مقبولة والبرهنة بوضوح عن اتفاقها مع العقل، وهذا ما أفضى إلى الاستعانة بالفلسفة -كنظام عقلي- لدحض دعاوى الخصوم وإفحامها، وأظهر الحاجة إلى إرساء أسس علم اللاهوت. وعلينا أن لا ننسى -من وجهة أخرى- كيف أن عناصر فكرية ودينية عديدة تداخلت فيما بينها، وامتدت بشكل أو بآخر إلى ثنايا الثقافة المسيحية وأقصت إلى وراء جانبها من جوهرها، فلقد تقبل المسيحيون جل النظريات التي تعلي وتضخم من شخصية المسيح بغض النظر عن أصولها وتأويلاتها، حيث أننا لنجد الفكر الأسطوري والوثني وكذا اليهودي ماثلاً في بنية اللاهوت المسيحي.

ولأن النظام العقائدي الديني ينبغي أن يتشكل في أعماقه جوهرية أصيلاً سرعان ما أحدثت هذه العناصر الدخيلة خلافاً كبيراً في الجهاز الروحي والعقدي للمسيحية، كما أضعفت أيضاً منظومتها الأخلاقية وتركيباتها الفكرية، وهذا ما اقتضى اللجوء إلى التأويل الرمزي، وأظهر الحاجة إلى التطعيم بالفلسفة اليونانية لكن إلى أي مدى امتزجت النظريات اللاهوتية بالقضايا الفلسفية؟

لم يتجنب المسيحيون تأثيرات الفلسفة ولم ينكروها، بل حاولوا منذ بدء اتصالهم بها إخضاع أحكامها العقلية إلى مقتضيات فروضهم الدينية، وهذا يعني أن الإيمان المسيحي لم يناوئ الفلسفة، وإنما وجد فيها الدعم العقلي والسند المنطقي لجملة عقائده وتنظيماته.

ولقد استهوت الأفكار الفلسفية والنظم العقلية المسيحيين كثيرا، وكان يعجبهم منها "القول بعالم المحسوس، وبإله هو الخير بالذات، وشمس العالم المعقول وصانع العالم المحسوس بما فيه خير وجمال وبنفس إنسانية روحية هابطة من العالم المعقول تائقة العودة إليه، وبتحقير الجسم،... والإشادة بالزهد والتطهير والخلود والإتحاد بالله..⁵⁴"، وغيرها من المفاهيم والأفكار التي رأوا أنها لا تعارض عقيدتهم ولا تناقضها، بل تتم ما ورد فيها، حيث أنها تجيب عن كثير من القضايا والمعاني المبهمة التي لم يجدوا لها معنى خارج أطر التفلسف والمنطق.

لم يقف النقاء المسيحية بالفكر الفلسفي اليوناني عند حدود الإعجاب والإشادة، وإنما تعداها إلى التعاطي مع هذه الأفكار إذ تناول المسيحيون "كل المفاهيم التي من شأنها زيادة المسيحية الأولى عمقا وجمالا"⁵⁵، كما لم يدخروا أدنى جهد في تطويعها وتحويلها إلى خدمة اللاهوت. وهكذا استعارت المنظومة المسيحية من الوافد الأفلوطيني الكثير من المفاهيم والأفكار الفلسفية التي طعمت بها نصوصها الأصلية، حيث أنها أدخلت "في العقائد الإيمانية ألفاظا فلسفية استقتها من اليونانية السائدة آنذاك، كالأقنوم والشخص والطبيعة والجوهر..."⁵⁶ وقد كان لتلك الألفاظ بالغ الأثر في السجال اللاهوتي الشائك الذي دار حول طبيعة المسيح هل إلهية أم إنسانية؟ أم تشتمل الاثنين معا؟ إذ وضحت هذه المفاهيم باستعارة فلسفية غاية في الدقة - كيف يتحد العنصران الإنساني والإلهي في شخص يسوع الواحد.

وقد برزت الحاجة إلى الفلسفة أكثر في الدفاع عن العقيدة المسيحية بوجه خصوصها ومنكريها، ذلك أن المسيحيين وفي ظل فوضى المذاهب والملل التي شهدتها المسيحية منذ انبعاثها الأول - عرفوا تضيقا شديدا من قبل العديد من العقائد والديانات المنافسة ولحق بهم الكثير من العذاب والاضطهاد، ومن ثمة وجهوا جل اهتمامهم للدفاع عن عقيدتهم وتصحيح الصورة الخاطئة التي ارتسمت حولها.

وهذا ما أدى إلى ظهور جماعة من الكتاب المدافعين* الذين انتشروا في النصف الثاني من القرن ميلادي وخصصوا كتاباتهم للدفاع عن المسيحية⁵⁷، وتأتي هكذا الحاجة إلى الفلسفة لتعير المسيحيين أدوات المنطق والحجاج وتسلحهم بالأدلة والبراهين، وهذا يعني أنهم يحولون الفلسفة إلى علم للدفاع عن الدين *Apologetics*⁵⁸.

ولما كانت بيئة المسيحيين بيئة يهودية ووثنية بالدرجة الأولى، وجه هؤلاء المدافعون دفاعاتهم إلى اليهود والوثنيين، وكان عليهم "أن يبينوا أن المسيحية هي الفلسفة الأكثر عقلانية وسموا وقدما من غيرها"⁵⁹، فأقاموا العديد من المناقشات التي اتخذت من "حوارات أفلاطون وشيشرون مثالا لها وكادت تحتذ بها دون سواها في مبناها ومنطقها الفلسفي والأخلاقي"⁶⁰ فكثيرا ما أعجب المسيحيون بالأفلاطونية وخصوصها بأكبر التقدير والثناء لتوائم الكثير من أفكارها ونظرياتها العقلية مع منطلقات عقيدتهم الإيمانية. وهذا يعني أن التفكير الفلسفي العقلاني لا يتناقض مع مقتضيات الدين المسيحي، وإنما يسير معه في اتجاه واحد، ويعمل لصالحه جنبا إلى جنب، أي أن القضايا العقلية والحقائق النقلية كلاهما تعبيرات عن الحقيقة لكن وفق أسس مختلفة. غير أن هذه المرونة في التعامل مع الفلسفة لا تلغي نكرانها وازدراءها من قبل فريق من المحتجين والذين نبذوا الكثير من نظرياتها، إما لأنها أبرزت أقوالا معارضة للمسيحية، كما هو الحال بالنسبة للأرسطوطالية التي انتقدوها أيما انتقاد لأنها تقول بان المحرك الأول لا يحرك حركة فاعلية بل حركة غائية وأنه ليس خالقا ولا منظما للعالم، وأن العالم قديم ضروري بمادته وصوره وغيرها، أو لأنها تخالف التصورات الرئيسية للمسيحية كعقيدة توحيدية مثل الكتب الفلسفية التي تتحدث عن الله والألوهية والآلهة دون فارق ولا تمييز ومثل قدم المادة والتناسخ... إلخ، وكما أنكر المسيحيون الأفكار الأرسطوطالية ونفروا منها، كذلك أجمعوا على نبذ الأبيقورية وازدراءها لأنها كانت تؤلف الموجودات من ذرات مادية ليس غير، بما في ذلك الآلهة والنفوس البشرية وتتكر الخلود، وتقتصر الحياة الإنسانية على طلب اللذة، أما الرواقية فأنكروا عليها قولها بوحدة الوجود وبالمادية المطلقة، وجواز الانتحار⁶¹.

ذلك أننا نميز -في حقيقة الأمر- اتجاهين في التفاعل مع الفلسفة: اتجاه يعجب أنصاره بالفلسفة اليونانية ويلتمسون رفعها، إذ يتحرون ما بلغت إليه من حقائق أعلنتها المسيحية من

جهتها، ويخلصون من ذلك إلى أنه لا تعارض بين الفلسفة ومبادئ الدين المسيحي، بل إن الفلسفة تمهد السبيل للدين، فالاتفاق بينهما صريح وأكد.

واتجاه ثان ينتصر أصحابه للمسيحية ويحملون في المقابل على المذاهب اليونانية ويدللون على أنها مصدر للبدع في الكنيسة، كما يعارضونها "بالحقيقة المسيحية" لكشف ما يوجد بينهما من تعارض واختلاف، وقد بذل أصحاب هذا الفريق قصارى جهدهم في نقد الفلسفة وتبيان أنها لا تقود سوى إلى الهرطقة والتضليل لدحض أي محاولة للتقريب بينها وبين العقيدة المسيحية.⁶² وفي هذا السياق انتقدت الأفلاطونية المحدثة بوجه خاص وتعرضت لأشد التضييق مقارنة بغيرها من الفلسفات، وذلك لأنها تزامنت في الظهور مع الدين المسيحي ومن ثمة نظر إليها على أنها قد حاولت أن تخلق مركزا مضادا للمسيحية بواسطة إحيائها للديانات القديمة.⁶³

وقد ولد هذا الهجوم العنيف على الفلسفة إشكالية معقدة وعويصة وهي ما وجه العلاقة بين العقل والوحي؟ وأيهما أسبق وأشمل من الآخر؟

وعليه أثيرت الكثير من الشكوك حول طبيعة اللاهوت المسيحي وحول حدود العلاقة بينه وبين الفلسفة، مما أفرز سلسلة من الاستفهامات أبرزها: هل هناك معنى حقيقي لتعبير الفلسفة المسيحية؟ وهل هذا يعني أن اللاهوت المسيحي فلسفة بعينه؟ إلى أي مدى يمكن أن يصبح العقل مسائلا للوحي المسيحي؟

كثيرة هي الأسئلة التي أثيرت حول وجود الفلسفة المسيحية ذاتها، وهي تلك الاستفهامات التي رفع لواءها المؤرخون من ناحية، والفلاسفة من ناحية ثانية، والسكولائيون من ناحية ثالثة، وقد استمرت الجدالات بخصوص هذا الشأن ردحا من الزمن، حيث أنها ظلت الشغل الشاغل للفلاسفة ورجال الدين طوال القرون الأولى الوسطية، وفي هذا الصدد يلغي الكثير من الفلاسفة أي إمكانية للمزاوجة بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية، بل ويذهبون إلى القول بأن فكرة الفلسفة المسيحية فكرة متناقضة ومستحيلة من منطلق أن العقل (أو الفلسفة) له ميدانه الذي يختلف تمام الاختلاف عن ميدان لنقل (الوحي أو الدين) فللفلسفة طريقها وللدين مجاله الخاص، ومن ثمة لا يمكننا الجمع بينهما على صعيد واحد.

وهذا ما طرح أمام الكنيسة مسألة التعامل مع العقل ومدى تحكيمه في حل الإشكاليات ذات الطابع الديني وكذا العلاقة بين الفلسفة والدين المسيحي على ما يوجد بينهما من تباين واختلاف، "الفلسفة تقوم على العقل وحده بينما الدين يقوم على الإيمان"⁶⁴، وليس ثمة أي تعلق ذاتي بينهما يقضي بحمل أحدهما على الآخر.

لكن على ألا يفهم أن هناك تمايزا ظاهرا في ذلك، فجملة الأفكار التي كونها اللاهوت وأصبحت من صلبه كانت قد انتظمت من أمشاج الفكر القديم بحيث اصطبغت نظريات العقل الصرفة بأفكار القديسين ولاهوتهم الديني، بل إن آباء الكنيسة لم يعترفوا أصلا بالتمايز بين الفلسفة واللاهوت، ولهذا فإن سؤال التفريق بينهما لم يكن واردا كقضية تهدف إلى التمايز وتستوجب الحل، ولا بد من التأكيد هنا على أن هذا التداخل تم بطريقة عفوية ودون إكراهات لأن الفلسفة كانت تمثل الطريق الأمثل للدفاع عن العقيدة المسيحية.⁶⁵

غير أن هذا التوافق بين الفلسفة والدين لا يسمح -حتى الآن- بالحديث عما يمكن تسميته: "فلسفة مسيحية"، وذلك لانحسار دور الفلسفة في الدفاع فقط عن العقيدة المسيحية، إذ تم اعتبار أي فلسفة لا تدعن للعقيدة الدينية، فهي لا بد أن تكون وثنية⁶⁶، كما لم يسمح ببذل العقل إلا في الحدود التي يقرها اللاهوت ويقضي بها، فلقد تم حصر التصور العقلي المجرد في نطاق ما تمليه الممارسات اللاهوتية فحسب أي أن العقل لا يعمل إلا لخدمة الدين ووفق حدوده. وبهذا أمكننا القول بأنه: ومع كل هذا النشاط العارم طوال القرون الأولى، فإنه لم تظهر "فلسفة مسيحية" بالمعنى الدقيق للكلمة ذلك أن الاستجداء بالمأثور الفلسفي اليوناني كان من الأصل اضطراريا لتمثيل المبادئ اللاهوتية في بناءات عقلية صارمة كان الهدف الرئيس من ورائها حل الإشكاليات اللاهوتية العالقة التي لم يقدر اللاهوت على حلها بمقوماته الخاصة وأيضا لتطعيم النصوص الدينية بالمفاهيم والأفكار العقلية إلى غير ذلك من الدواعي التي فرضتها السجلات والحوارات غير المتكافئة بين المسيحيين وخصومهم، وغيرها من المقننات الداخلية والخارجية على حد سواء، مما يعني أن المسيحية لم تطلب الفلسفة لذاتها - على الأقل في هذه المرحلة- وإنما لجأت إليها ووظفتها فقط لاعتبارات براغماتية.

استمر دور الكنسية في التعاضم أكثر فأكثر، وبمرور الوقت استقام صرحها وقويت أطرها اللاهوتية، ذلك أن رجال الكنسية قد أحكموا سطوتهم على اللاهوت، ومن ثمة على توجيه الممارسات الفكرية، وبذا تم حصر التفكير العقلي في حدود ما يمليه النقل ويسمح به⁶⁷ إذ تم اختزال النشاط الفلسفي في بناء تصورات عقلية صرفة أريد بها إصباح المبادئ اللاهوتية بالطابع العقلي للتفكير الفلسفي والتي لعبت بالفعل دورا كبيرا في حل الكثير من الإشكاليات اللاهوتية العالقة.

وعليه لم يسمح بالحديث عن فلسفة مسيحية* حتى مرحلة لاحقة، بعد إن ترسخ الإطار الكنسي⁶⁸، فظهرت "الفلسفة المدرسية التي بذلت جهدا كبيرا في إضفاء الطابع المسيحي على الفلسفة، وهنا بسبب أن اللاهوت قد حدد وظيفته وهي الدفاع عن العقيدة، فإنه يمكن الحديث تجوزا، كما يذهب بعض المؤرخين عن فلسفة مسيحية، لأن موضوعاتها كانت تنظم في سياق العقيدة المسيحية"⁶⁹، ووفق ما يخدم الوحي واللاهوت**، حيث أنها تقوم على العقل، لكن هذا العقل وحده غير كاف لتحقيق الحقائق وإدراكها بمعزل عن الإيمان المسيحي، فهي تحاول إلى جانب استنادها إلى التعقل أن تجمع في بحثها عن الحقيقة بين العقل والنقل في آن الوقت.

لقد هيمن الطابع اللاهوتي على التفكير الفلسفي طوال القرون الوسطى، وفي غضون ذلك أنتج اللاهوت سلسلة لا نهائية من الثنائيات الضدية، مثل رجل الدين ورجل الدنيا، مملكة الله ومملكة الدنيا، الروح والجسد، الإيمان والعقل... إلخ، كما بذل الكثير من رجال الدين جهودا معتبرة في إرساء أسس اللاهوت المسيحي.⁷⁰

بيد أن الحديث الفعلي عن حضور الفلسفة في الفكر المسيحي، وبالتالي تبادل التأثير بين العقل والنقل وإيجاد علاقة توفيقية بينهما، مدين بوجه خاص لجهود فلاسفة وقديسين من أمثال القديس أوغسطين*** والقديس أنسلم اللذان يعود إليهما الفضل في إدخال المأثور الفلسفي اليوناني إلى عمق الفكر المسيحي والتمهيد لتأسيس علاقة واضحة ووثيقة بين الفلسفة والدين.

فالأول (أوغسطين) حاول التوفيق بين المعتقدات الدينية التي تدعو إليها المسيحية، وما تقوم عليه الفلسفة من مبادئ عقل ومنطق، واضعا بذلك الأسس الأولى الصريحة للتعامل الفلسفي

مع الدين، أما الثاني (أنسلم) فأراد التوفيق بين العقل والنقل، بين الفكر والمحبة، مؤكداً على أن حقيقة العقل لا تتعارض مع حقيقة الإيمان ولا تتناقضها، وإنما تتوافق معها وتكملها.

خاتمة:

لقد برز إلى المفهمة المسيحية مسألة التعامل مع مفهوم العقل وكيفية تحكيمه في دراسة موضوعات الطرح الديني للمسيحية وكيفية حل المعضلات اللاهوتية المستنبطة من الإنجيل وما إذا كانت القيم والتصورات تحمل في ذاتها قابلية الخضوع للبناء العقلي للفلسفة، ويجب أن نشير هنا إلى أن التداخل بين اللاهوت والفلسفة تم بطريقة عفوية أي دون إكراهات على آباء الكنيسة لأن الفلسفة كانت تمثل بالنسبة لهم الطريقة الأقوى للدفاع عن العقيدة ومبادئها وفي المقابل تم اعتبار كل فلسفة تخرج عن العقيدة المسيحية ولا تدعن لها فهي وثنية.

وهكذا ظهر عمل مزدوج في مسار الفكر المسيحي، الأول إضفاء الطابع الفلسفي على المسيحية حتى تجد لها مكاناً في السجل اليومي لدى المؤمنين وتستأثر باهتمام المفكرين الذين سيتخذون من المسيحية موضوعاً للاشتغال عليه، ومن ثمة إصباح الفكر الديني بالملاحم والقيم العقلية.

وأما الثاني، فهو إضفاء الطابع المسيحي على الفلسفة الوافدة وهذا ما نلاحظه بعد ترسخ الإطار الكنسي حيث ظهرت الفلسفة المدرسية التي بذلت جهداً كبيراً في إضفاء البعد العقدي للدين المسيحي على التفلسف العقلي.

ومنه يكون هذا العمل المزدوج بين الفلسفة والدين لإضفاء طابع أحدهما على الآخر، قد وُلد إشكاليات معقدة كان على الفكر المسيحي مناقشتها، ليس لفك الارتباط بينهما وأنّى يكون له ذلك وقد خلط أحدهما بالآخر خطأً يكاد أن يتماها فيه، ولكن بجعلهما متناغمين في غير تناقض أو التباس، إلا أنه قد هيمن الطابع اللاهوتي على التفكير الفلسفي طوال القرون الوسطى، ولكن في أثناء ذلك حاول أعلام الفلسفة المسيحية تمثيل المسيحية كدين تمثيلاً عقلياً للدفاع عنها أمام معارضيها ضمن خطابات أريد لها أن تخاطب الناس جميعاً، وهنا أمكننا القول أن هذه الخصائص والمعطيات ساهمت إلى حد كبير في تشكيل جبهة لاستقبال الفلسفة اليونانية دون عقدة الاستعانة بما أصله وثني أو أسطوري.

المراجع:

- أتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1996.
- إدوار جونو، الفلسفة الوسيطية، ترجمة علي زيعور، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1979
- إميل برهيه، الفلسفة الهلنستية والرومانية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988.
- إنجيل برنابا، (دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليه السلام)، تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، ط1، 1973.
- نهى النجار، الديانة المسيحية: موسوعة الأديان السماوية والوضعية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995.
- جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد الملك، دار الحقيقة، لبنان، الطبعة الثالثة، 1971.
- روجيه أرندليز، رسل ثلاثة لإله واحد، ترجمة وديع مبارك، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، 1998.
- شارل جينبير، المسيحية: نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، بدون طبعة.
- عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، بدون طبعة، بدون سنة.
- عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، بيروت، 1979
- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف: المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات) المركز الثقافي العربي، بيروت، دار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.

- علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، دار اقرأ بيروت، ط1، 1983.
- كيرلسن سليم بسترس وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ط1، 2001.

الهوامش:

- 1 - عبد الله إبراهيم المطابقة والاختلاف: المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات) المركز الثقافي العربي، بيروت، دار البيضاء، الطبعة الأولى، (1997)، ص280.
- 2 - روجيه أرنلديز، رسل ثلاثة لإله واحد، ترجمة وديع مبارك، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، 1998، ص13.
- 3 - روجيه أرنلديز، رسل ثلاثة لإله واحد، مرجع سابق، ص13.
- 4 - شارل جينبير، المسيحية: نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، بدون طبعة، ص116.
- 5 - المرجع نفسه، ص115.
- 6 - المرجع نفسه، ص116.
- 7 - عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص282.
- 8 - المرجع نفسه، ص281.
- 9 - عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص283.
- 10 - المرجع نفسه، ص279.
- 11 - المرجع نفسه، ص279.
- 12 - تطلق هذه التسمية على الكتاب المسيحيين في القرون الأولى من التاريخي المسيحي والذين كرسوا حياتهم لخدمة الكنيسة والدفاع عنها، ويمكن القول أن هؤلاء الآباء خدموا الفلسفة الوسيطية بين وجهين: فهم حملوا إليها قسما موفورا من ثروات الفكر القديم وهو القسم الذي لا يتعارض طبعا مع جوهر العقيدة المسيحية، وهم وضعوا

أيضا الإرهاصات الأولى للتفكير الفلسفي في العصر الوسيط أنظر إدوار جونو، الفلسفة الوسيطة، ترجمة علي زيعور، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1979، ص ص31، 30.

¹³ - تعرف الفلسفة التي نشأت في العصور الوسطى باسم الفلسفة المدرسية لأنها تدل على الفلسفة التي نشأت في المدارس، فلقد كان لفظ مدرس يطلق على كل من يدرس في مدارس العصور الوسطى أو على كل من تخرج منهم، راجع: عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، بيروت، 1979، ص43،

¹⁴ -إنجيل برنابا (دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليه السلام)، تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، ط1، 1973، ص05 وأنظر أيضا، نهى النجار، الديانة المسيحية: موسوعة الأديان السماوية والوضعية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص ص20، 21.

¹⁵ - ليست الأناجيل في مطلق الأحوال كتباً تاريخية فهي لا تهتم بالسرد التاريخي، إذ لا تولي للترتيب الزمني والتوثيقي كبير عناصر، بينما لها قيمة تاريخية فعلية، فقد كان الإنجيليون الأربعة (متى، مرقس، لوقا، يوحنا، والذين تنسب إليهم الأناجيل شهود عيان استطاعوا أن يقدموا شهادة مباشرة روحانية وعميقة عن المسيح يدعمهم في ذلك شهود آخرون معاصرون لمقدورهم تثبت ما أورد الأربعة في أناجيلهم، راجع: علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة، دار اقرأ، بيروت، ط1، 1983، ص ص10، 12.

¹⁶ - المرجع نفسه، ص10.

¹⁷ - نهى النجار، المرجع السابق، ص33.

* - لقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل التي دونها الرسل الأوائل وبعض أتباع المسيح، ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالافتراء، أي بكثرة الأصوات والترتيب للمفضل لها عند المؤرخين هو إنجيل مرقس هو أقدم هذه الأناجيل ثم يليه إنجيل متى فإنجيل لوقا، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب مع العلم بأنها كتبت في الأصل رسالة بغير أقسام وبغير مواضع للوقف والإلحاق ولم تقسم إلى إصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد ولمزيد من التفصيل راجع: عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، بدون طبعة، بدون سنة، ص178، 179.

¹⁸ -علي زيعور، مرجع سابق، ص10.

¹⁹ -المرجع نفسه، ص12.

²⁰ -نهى النجار، مرجع سابق، ص32.

²¹ -المرجع نفسه، ص37.

²² -نهى النجار، مرجع سابق، ص32.

** - يؤمن المسيحيون إضافة إلى الأسرار الإلهية، بأسرار مقدسة سبعة، والتي تسمى أيضا بأسرار البيعة، وهي وفقا لاعتقادهم، وصايا قدسية سلمها المسيح للبشر انتصارا لهم، إذ قام منتصرا بعد ثلاثة أيام كاملة من موته مصلوبا، وتراءى لأمه وتلاميذه ورسله مدة أربعين يوما بعد قيامه، وسلمهم هذه الوصايا والتي عليها كانوا سيؤسسون كنيسته، ولمزيد من الإسهاب والتفصيل أنظر: علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسطية، مرجع سابق، ص ص 26، 27.

23 - نهى النجار، الديانة المسيحية، مرجع سابق، ص 80.

24 - علي زيعور، مرجع سابق، ص 80.

25 - المرجع نفسه، ص 18.

26 - نهى النجار، مرجع سابق، ص 81.

27 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، مرجع سابق، ص 284.

28 - نهى النجار، مرجع سابق، ص ص 81، 82.

29 - علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، مرجع سابق، ص 19.

30 - نهى النجار، الديانة المسيحية (موسوعة الأديان السماوية والوضعية)، مرجع سابق، ص 91.

31 - المرجع نفسه، ص 93.

32 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، مرجع سابق، ص 304.

33 - شارل جنبيير، المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 157. نهى النجار، ص 67.

34 - نهى النجار، المرجع السابق، ص 67.

* - يوافق هذه النظرة ما ذهب إليه أفلوطين، ذلك أنه من المبادئ الأساسية للأفلاطونية المحدثة القول بالأفانيم الثلاثة والتي طورتها المسيحية لاحقا.

35 - نهى النجار، المرجع السابق، ص 67.

** - على نحو ما ذهبت إليه الكنيسة الأرثوذكسية والتي تعتقد إن للمسيح طبيعتين، إلهية وإنسانية متحدتين في شخص واحد، وهذا الإتحاد قائم بدون انقسام أو انفصال أو تحول أو اختلال أو اختلاط... إلخ يراجع هنا: علي زيعور، مرجع سابق، ص 22.

36 - روجيه أرنلديز، رسل ثلاثة لإله واحد، مرجع سابق، ص 17.

37 - نهى النجار، الديانة المسيحية (موسوعة الأديان السماوية والوضعية)، مرجع سابق، ص 68.

38 - المرجع نفسه، ص 67.

39 - شارل جنبيير، المسيحية نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص 156.

- 40 - شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص158.
- 41 - أنظر عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح في التاريخ وكشف العصر الحديث، مرجع سابق، ص ص71، 72.
- 42 - المرجع نفسه، ص157.
- 43 - عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح في التاريخ وكشف العصر الحديث، مرجع سابق، ص71 وما بعدها.
- 44 - عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح، المرجع السابق، ص178.
- 45 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص253.
- 46 - روجيه أرندليز، رسل ثلاثة لإله واحد، ترجمة وديع مبارك، مرجع سابق، ص119.
- 47 - شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص152.
- 48 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، وأنظر أيضا: شارل جنيبير، المرجع السابق، ص154.
- 49 - شارل جنيبير، المرجع السابق، ص154.
- 50 - عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص283.
- 51 - شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص ص156، 157.
- 52 - كيرلسن سليم بسترز وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ط1، 2001، ص ص: 214، 215.
- 53 - المرجع نفسه، ص ص 215، 216.
- 54 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص254.
- 55 - شارل جنيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص123.
- 56 - نهى النجار، الديانة المسيحية، مرجع سابق، ص151.
- **- الكتاب المدافعون وقد دعوا أيضا بالمحتجين أو المحامين عن الدين، وهم طائفة من الكتاب قاموا في مختلف البلدان يوجهون رسائل إلى الأباطرة يدافعون فيها عن الدين الذين اعتنقوه بعد أن شبوا على الوثنية والفلسفة وهو فريقان: فريق ينتقد الفلسفة ويبين أنها تخلو من الحق كلية لإلغاء أي نزعة للتوفيق بينها وبين الدين المسيحي، وفريق يعجب بها ويوظفها للدفاع عن الدين، ورجال الفريق الثاني هم الذين يهتموننا في هذا السياق، بوجه خاص، أنظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص261.
- 57 - كيرلسن سليم بسترز، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، مرجع سابق، ص213.
- 58 - أتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1996، ص 36.
- 59 - كيرلسن سليم بسترز وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، مرجع سابق، ص214.

- 60 - المرجع نفسه، ص218.
- 61 - يوسف كرم ، مرجع سابق، ص ص 254، 256.
- 62 - المرجع نفسه، ص261.
- 63 جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد الملك، دار الحقيقة، لبنان، الطبعة الثالثة، 1971، ص 54.
- 64 - عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص 01.
- 65 - عبد الله إبراهيم، مرجع سابق، ص288.
- 66 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 67 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، مرجع سابق، ص288
- * - عارض الكثير من القساوسة رجال الدين فكرة وجود فلسفة مسيحية، ورأوا أن لا علاقة البتة بين الفلسفة والدين المسيحي، ومن بين هؤلاء القديس برنار والقديس بطرس دمياني اللذان يعتقدان: "إن الدين المسيحي ليس في حاجة مطلقا إلى الفلسفة لأن موضوع الدين المسيحي "فكرة الخلاص" التي لا صلة لها بالفلسفة، بل على الأرجح أن يكون اشتباك الفلسفة من منظورها، أنظر: عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص01.
- 68 - إميل برهيه، الفلسفة الهلنستية والرومانية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة، والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988، ص296، 297.
- 69 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، مرجع سابق، ص288.
- ** - اللاهوت الكنسي يقابل مفهوم الفلسفة المسيحية التي طبعت العصر الوسيط بطابعها، وعليه نجد أن كلمة "لاهوت" وكلمة "فلسفة" أو "حكمة" لها معنى واحد عند آباء الكنسية الأولين، حيث ان الفلسفة -في اعتقادهم- ما هي إلا البحث عن الحق والحق هو الدين، راجع: عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص289، وانظر أيضا: عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص190.
- 70 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، مرجع سابق، ص289.
- *** - فلسفة العصور الوسطى تبدأ على وجه التدقيق في القرن 09 وتنتهي تقريبا في القرن 14، أما الفترة التي جاءت منذ بدء المسيحية حتى القرن 09 فتسمى بفترة الآباء Age patristique لأن التفكير في هذه الفترة كان مقتصرًا على آباء الكنسية، ووفقا لهذا التقسيم القديس أوغسطين ليس من فلاسفة العصور الوسطى، بل هو فيلسوف من فلاسفة عصر الآباء.